وولادة أو شفاء بمرض أو مناسبة عيد أو صيام رمضان ، كأنهم يسجّلون الأفراح بمدائح لا تفوتهم منها شاردة أو واردة ؛ فهم الصحفيون الرسميون والمؤرخون فى الشعر ، حين يلازمون ممدوحيهم ويصدرون عن أحوالهم بلاغات لكل حادث طارئ عظم أو أسف . ولذلك كانوا يعمدون غالباً إلى الإنكسار فيصورونه انتصاراً ، أو يخففون من وقعه وحدّة الخزى فيه ، حتى يخيل للناقد المتتبع أن الأعداء كانو يفرون دائماً أمام هؤلاء الممدوحين ، ويولون الأدبار فيتولاهم الذل والخوف والجزع والرهبة ، وأما النصر والظفر والهيبة والإشراق والعظمة فكلها لهؤلاء الوزراء والأمراء والقواد ، لم نسمع ببطولة جندى معين أو شجاعة الرعية ، وإنما رأينا العجاج يثور والسيوف تفعل فى الرقاب ولمحنا العدوّ بعد ذلك بعضه يولى منهزماً وبعضه قد ملأ الأرض بجثثه وقد حام حولها الطير ، فالمنية فى أيدى هؤلاء الممدوحين يتصرفون بها كيف يريدون ، وينزلون الضربات القاصمة على من يعادون . حتى ليتساءل بعض المستشرقين إذا كان هؤلاء الشعراء يجهلون الحروب أو أنهم لم يشهدوها ، فكأنهم يصنعون البيانات بالانتصارات يتقدمون بها كتهنئة لعودة هؤلاء العظماء إلى قصورهم ، يغدقون على شعرائهم من جديد ، فكأنهم يمطرون الشعب كله بكرمهم ويعمون الدنيا بخيراتهم ؛ ولعلهم كانوا يعتقدون أن الجيش يصلح بالرأس وحده وينتصر برأيه ، فإذا فسد انهار الجيش كله . وقد أدرك أحمد شوقى هذه الفكرة فى القرن العشرين فقال : « ولا الجيش إلا ربّه حين ينسب » ولعله استخلص ذلك من قراءاته لأدب المديح فسار هو نفسه على هذه الخطة ، ولم يخرج بذلك عن تشبيهات القدماء ، ووصف قوة الوزراء وبسالة القواد ونظر إلى هؤلاء من خلال الدين وحماية الإسلام كما نظر العباسيون من قبل ، فأشاد بمصطفى كمال وشبهه بخالد بن الوليد ، وذكر تقاه وبلاءه وعظيم تفانيه مع قواده :

قُوّادُ مَعْرَكة ورّادُ مَهْلكة أَوْتادُ مَمْلَكَة آسَادُ مُحْتَربِ

بَلَوْتَهُمْ فتحدّث كم شددت بهم من مضمحلٍّ وكم عمّرت من خربِ